
أولادنا
أم حنان
بقلم
عبد التواب يوسف
Bibliotheca Alexandrina
0018158

اقرأ

(٣١)

أُمُّ حَنَان

رِوَايَة لِلنَّاشِئِين عَن حَرْب أكتوبر

بقلم

عبد التواب يوسف

الطبعة الثانية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

كلمة

وقف التاريخ طويلا عند :

- حتشبسوت
- كليوباترا
- جان دارك . .

وكان يجب أن يقف إجلالا عند هذه الفلاحة المصرية الطيبة، ولا يغادرها حتى يسجل اسمها فى صفحات المجد والخلود.

لم يفعل، وكان لابد أن نقف نحن بدلا عنه . . لنكتب حكايتها العظيمة الرائعة.

إهــــداء

إلى المرأة المصرية التى عرفت حق الوطن عليها، وثارت من أجله عام ١٩١٩ قبل أن تثور من أجل حريتها الخاصة..

إلى هذه الإنسانة العظيمة : أمًّا، وأختًا، وابنة، وزوجة، وزميلة عمل - أقدم سيرة هذه البطلة : «أم حنان».

عبد التواب يوسف

الباب الأول

مدخل

التاريخ يقول :

فى سابق العصر والزمان، كان هذا المكان، قبل حفر القنال، بحرًا من الرمال. . . وفجأة نبتت فوقه -على ضفة القناة- ومن حول بحيرة التمساح، مدينة «الإسماعيلية». . وقد عسكر فيها الإنجليز منذ احتلوا «مصر» عام ١٨٨٢ .

وناضلت مصر ضدهم، وهبت عليهم فى ثورة ١٩١٩ . وأخمدوها، وعقب الحرب العالمية الثانية تم جلاؤهم عن القاهرة تحت ضغط الشعب، وتمركزوا غرب القناة. . ومع النصف الثانى من القرن العشرين -١٩٥١- هبت مصر فى ثورة ضدهم، تقاتلهم داخل معسكراتهم وفى مدن القناة، وأصبح النداء على كل لسان :

- الجلاء بالدماء!



حكايتنا تقول :

كان يا ما كان . . كان هناك صياد فقير، يعيش فى «الإسماعيلية»، ومعه زوجته، وابنه وابنته . . يخرج العم «دياب» كل صباح إلى البحر . . ويمضى «حسن» ابنه الصغير إلى المدرسة . . الصياد يلقى بالشبكة، لا يطمع فى الكثير، ولا يحلم بالقمقم الذى حبس فيه سيدنا سليمان ذلك المارد، ولو أنه ظهر يومًا لهذا الصياد وهتف :

- (شبيك لبيك، عبدك بين إيديك) !

ساعتها كانِ هذا الصياد البسيط، سينسى نفسه، ومطالبه، ولن يأمر المارد إلا بشىء واحد . .

- أَخْرِج الإنجليز من مصر !



لم يعثر الصياد على القمقم، ولم يظهر المارد، بل تحوَّل كل فرد فى «الإسماعيلية» إلى مارد يقاتل الإنجليز، حتى «حسن» التلميذ الصغير.. ابن الصياد، تلقى هذا البطل - ابن السنوات العشر - رصاصة فى صدره، وسقط شهيدًا.. وخفق قلب الإسماعيلية، وبكت فى مرارة.. لم يعد الصغير حسن إلى المدرسة، لكن أمه المسكينة لم تصدق ما حدث، يخرج الأب إلى البحر وتخرج هى إلى باب المدرسة، تقبِّل زملاء ابنها.. تحتضنهم. وفى موعد انصراف الأطفال يجدونها فى انتظارهم، تسألهم عن ابنها، ويبكون.. ويمضون إلى بيوتهم، فى حين تقف هى إلى أن يخرج آخر طفل من المدرسة، ويغلق الفرّاش أبوابها، ساعتها ترجع وهى لا تكاد ترى الطريق.

وذات مساء..

كان الأب «دياب» - وقد سلَّم أمره إلى الله - يتلو آيات من القرآن.. ووقفت «الأم» فى الشرفة، تتطلع إلى الشارع.. فى لهفة.. عيناها تبحثان عن ابنها «حسن».. فلا تصطدم إلا بالسيارات والمصفحات تحمل جنود الإنجليز الأعداء ينطلقون فى الشوارع مسرعين.. ووقفت «سميحة» الابنة الصغيرة بجانب أمها.. طالت الوقفة.. وهمست الطفلة:

- أمى، موقد البترول (وابور الغاز) ما زال مشتعلا!

انشغلت عنها بسيارة عسكرية إنجليزية مندفعة، صوتها يمزق هدوء الشارع، وطفل يعبره وينجو بأعجوبة، وعجوز تكاد تسقط تحت العجلات..

ويعلو صوت الابنة سميحة لتنبه الأم:

- أمى، الطعام سيحترق!

وسمعتها الأم فى هذه المرة.. وسيارات الإنجليز يتوالى مرورها..

وفجأة تهلل وجه الأم.. ابتسمت لأول مرة منذ فقدت ابنها.. كان من الواضح أنَّ خاطرًا مريحًا قد لاح لها، وأنَّ

فكرة وردت إلى ذهنها، فإذا بها راضية النفس، مستبشرة. .

وقبل أن يفيق الأب، وتتنبه سميحة الصغيرة، جرت الأم إلى داخل البيت، فأنزلت إناء الطعام من فوق الموقد، والابنة متعلقة بذيل ثوبها، وهى لا تكاد تشعر بها. . وحملت الأم الموقد، وهو ما زال مشتعلا، وفى سرعة السيارات البريطانية التى تعربد فى الشارع، جرت الأم إلى الشرفة. . كان المشهد رهيبًا. . سريعًا. . لا نستطيع أن نتوقف لوصفه أو تصويره:

إنها تحمل الموقد مشتعلا فى يدها قرب صدرها، وتحمل على وجهها أمارات عزم وإصرار، واللهب الذى يطل من عينيها لا يقل عن ذلك الذى ينبعث من الموقد. . وقد رفعته عاليًا، فوق رأسها، وحدقت فى الشارع بضع ثوان، وأقبلت عربة مملوءة بالجنود الإنجليز - قَتلة ابنها - وفى لمح البصر، قذفت بالموقد فى قلب السيارة المسرعة، وإذا بها شعلة نار متحركة، والصرخات تعلو، وإنْ هى إلّا لحظة دَوًّى انفجار كبير، فقد كانت السيارة تحمل مع الجنود ذخيرة وقنابل!

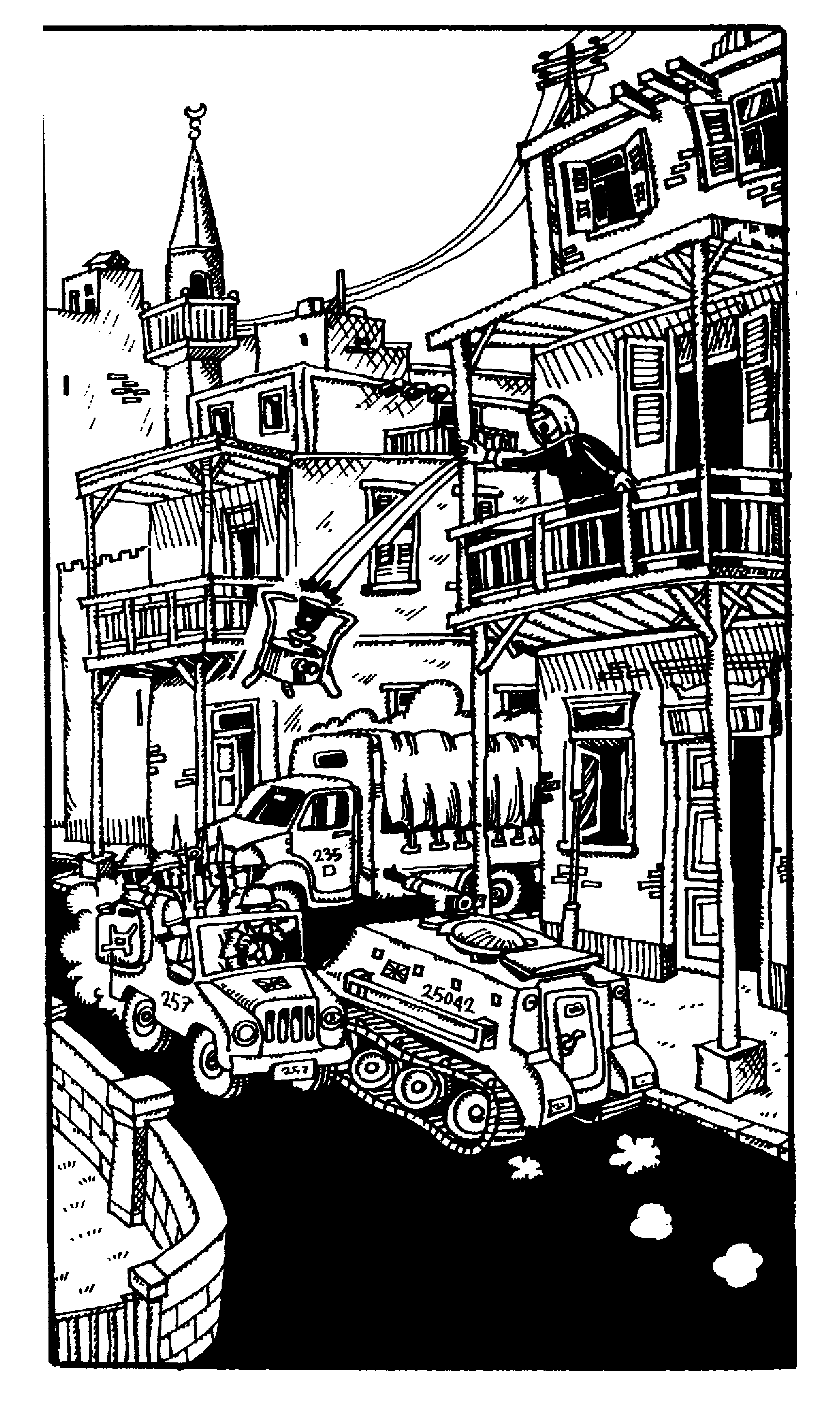
امتلأت الشرفات بالنّاس، يتطلعون للسيارة المحطمة، وصرعاها. . وينظرون إلى الأم وقد وقفت رافعة يمينها، قبضة يدها مضمومة، وصوتها يتحشرج بالهتاف لمصر. . والصغيرة

سميحة بجانبها تصفق فرحة مزهوّة، والأب فى ذهول لِما حدث، ولما يجرى.

وجاءت عرباتُهم المصفَّحةُ إلى الشارع. . كانت هتافات أهله أعلى من دَوىٍّ انفجار السيارة العسكرية البريطانية. أخذ الإنجليز الأم. كانت تضحك وتلوِّح للجيران.

لم يذهب دم ابنى هدرًا. .

وطالت غيبتها. لم يستطع زوجها أن يعرف لها مكاناً. اختفت تماماً. أدرك الجميع مصيرها. حمل «دياب» طفلته «سميحة» إلى ريف الإسماعيلية. . قرية (العمدة)، وتقع ما بين (فايد) و (أبو سلطان). فيها الأهل. لم يعد الأب قادرًا على أن يرى الإنجليز، كانوا يمرون بعيدًا عن القرية، تمضى سياراتهم على الطريق المرصوف الأسود فحسب. . وودع «دياب» ماضيه، حتى صيد السمك كف عنه، وبدأ يعمل فى الحقول والزراعة. استأجر قطعة أرض ليفلحها.


235
257
25042

الباب الثانى

التاريخ يقول :

فى ٢٥ يناير عام١٩٥٢ صمدت المدينة البطلة « الإسماعيلية » ورفض مبنى المحافظة أن يستسلم، وأبى رجال الشرطة الأحرار إلا أن يقاتلوا ببنادقهم الصغيرة مدافع الاستعمار البريطانى . .

وفى اليوم التالى احترقت « القاهرة » العاصمة . . صارت رمادًا . لكن جذوة نار ظلت مشتعلة تحت هذا الرماد، اندلعت ثورة رائعة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢، أطاحت بالملك والأحزاب والساسة القدامى . وصدر قانون الإصلاح الزراعى، ليمتلك الفلاحون الأرض التى يزرعونها . وأعلن الزعيم البطل قائد الثورة أن على الاستعمار أن يحمل عصاه على كتفه ويرحل، أو يقاتل دفاعاً عن وجوده . . ورضخ الاستعمار البريطانى بعد أكثر من سبعين عاماً، ووقعوا اتفاقية الجلاء، وفى ١٨ يونيو ١٩٥٦ خفق علمنا على أرضنا، وارتفع وحده فى سمائنا : عالياً مرفرفًا .



حكايتنا تقول :

قطع «دياب» و«ابنته» سميحة كل صلة لهما بالماضى. كان يحمل إليهما حزناً ثقيلا.. لقد فقد الصغير «حسن»، أملهما فى المستقبل، كما راحت الأم، وكانت كنز حنان. وعمل الأب فى الحقل بإخلاص وحب شديدين. كان يدفن آلامه مع البذور، وعندما تنمو زرعاً أخضر يتعهده بالعناية والرعاية.. والإبنة فى سن مبكرة أصبحت ربة بيت، وتتردد على مدرسة القرية. والحياة تمضى بهما، والأمل - كل الأمل - أن يرحل المغتصبون القتلة.. الذين أزهقوا روح الصغير، وانتزعوا الأم من دارها بلا رحمة، وبلا عودة. والأخبار تصل إلى «دياب» والقرية، فيهتز لها أهلها..

حملوا فئوسهم وأسلحتهم الصغيرة يوم حُوصرت المحافظة، وكان «دياب» بينهم. أعادهم الفدائيون إلى القرية.. قائلين: لا حاجة بنا إلى مزيد من المذابح!

وجاء يوم الثورة، زغردت الفرحة فى القلوب، وانتعش الأمل فى تحرير البلاد من الإنجليز.. ولقد سَعِد دياب وهو يمتلك قطعة الأرض التى سبق له أن استأجرها.. وبدأ يضاعف من جهده من أجل مزيد من الإنتاج.. والصغيرة سميحة تتردد على المدرسة تتعلم.. وهما يرقبان الإنجليز الذين يشددون من قبضتهم على مدن القناة وقراها، وتمر بهما دورياتهم ليل نهار، إذ كانوا يحسون أن الشعب يدبر لهم شيئا، ويرتب أموره على طردهم مهما كان الثمن، لذلك كانوا يرصدون ما يجرى فى المنطقة ويبثون عيونهم فى كل مكان،، بل كانوا يمرون داخل القرى، يتحرون، يفتشون، يبحثون، وكلهم قلق إذ لا يعرفون من أين ستُوَجَّه إليهم الضربة التالية، وبذلوا جهودًا كبيرة من أجل التقرب للناس والتحبب إليهم..

وكانت سميحة - مع زميلاتها - فى طريق العودة من المدرسة حين قابلتهم دورية بريطانية، حاولت أن تبادلهم



الكلام.. أشاحت الصغيرة بوجهها عنهم، إنها تكرههم وتبغضهم وتمقتهم، وتود لو أنها فعلت بهم ما فعلته أمها من قبل.. وقد وزع الجنود على الأطفال بعض قطع الحلوى. رفضت سميحة أن تأخذ منهم شيئًا. أغرتها صديقة لها، وأعطتها قطعة، كانت الصغيرة تلوكها فى فمها، حين قابلها أبوها راجعًا من الحقل سألها:

- ماذا فى فمك؟

- قطعة حلوى يا أبى.

- من أين أتيتِ بها؟

- أعطتها لى صاحبتى.

- هل اشترتها؟

- لا.. إنها من الإنجليز!

- ماذا؟! أخرجيها من فمك!!

كانت صرخة الأب عالية.. أفزعت الطفلة. وجدت نفسها تبصق كل ما فى فمها، فى اللحظة التى امتدت يد الأب لتصفع الصغيرة فى عنف وقسوة، وهو يصيح فيها..

- كيف تأكلين حلواهم؟ إنهم قتلة أمك، وأخيك.. إنهم سارقو الأرض والقطن والحرية.. يضعون الحلوى فى فمك، وهم يضعون لنا كل مرارة الدنيا منذ سبعين سنة.. لا تتبادلى معهم حديثًا، ولا تمدى يدك إليهم..

- طيب يا أبى!

وأحس الرجل أنه كان قاسيًا عنيفًا، فوضع يده على كتف ابنته وقال:

- معذرة يا ابنتى.. لكم أنا آسف.. تهورت. فقدت أعصابى. سامحينى يا سميحة..

أقسم أنى سوف أشترى لك حلوى بقرش صاغ كامل سأشتريها فورًا!

ردت سميحة: قرش صاغ كامل؟ هذا كثير.. كثير جدًّا يا أبى. إننا نحتاج إليه لشىء أكثر أهمية من الحلوى..

ضمها الأب إليه، وهو يسألها: هل أنت غاضبة؟!

- لا، يا أبى..

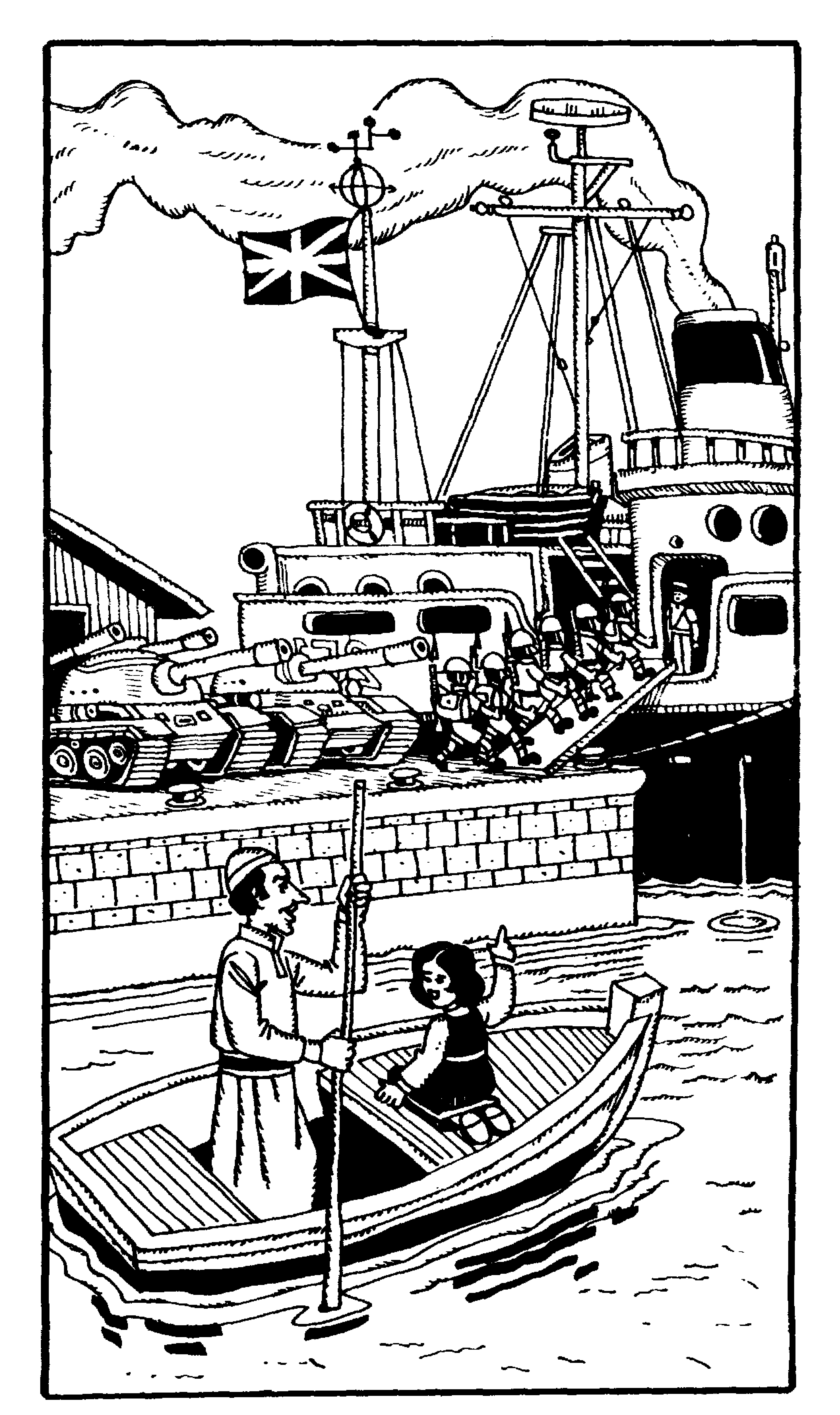
- يجب ألا نعاملهم، لا نبيع لهم، ولا نشترى منهم.. ولا نكلمهم.. صدقينى يا ابنتى، إذا تحدث إلىَّ واحد منهم تصنَّعْتُ الصَّمَم حتى لا أرد عليه!

- تبتسم سميحة، وتقول: لقد أضروا بنا كثيرًا..

- نعم يا ابنتى.. سرقوا كل شيء، وقد آن الأوان لكى نسترد أرضنا وحريتنا، ولم تعد الحلوى تجدى وتفيد.. انتهى عصر ضحكهم على الناس ولسوف نطردهم من أرضنا!

وبعد شهور قليلة من ذلك الحدث الذى هز مشاعر سميحة اصطحبها أبوها يومًا إلى ضفة القناة، واستقلَّ مركبًا مع واحد من أصحابه القدامى من الصيادين، وسعدت الصغيرة بالرحلة، إذ لم تتعود ذلك من قبل، خاصة وأبوها مشغول بأرضه وزرعه، كما أنه ترك البحر وأعماله منذ وقت بعيد.. وراح المركب الصغير يتجول فى بحيرة التمساح، ويتجه شمالا.. كانت هناك سفن حربية بريطانية راسية على الشط، والدبابات والمصفحات والعربات تصعد إلى السفينة، وتغيب فى جوفها.. سأل الأب ابنته: هل تَرَيْنَ هذا الذى يحدث يا سميحة؟

- نعم، ياأبى.. إنهم يرحلون.. يجلون بكل أسلحتهم..



- أحببت أن أرِيكِ هذا المنظر.. تمناه أبى وجدى.. رحلا قبل أن يتحقق الأمل.

- الحمد لله أنك شهدته يا أبى، وجعلتنى أشهده معك!

- رحم الله الشهداء الذين صنعوا هذا اليوم.. من بينهم شقيقك.. وأمك.. إنهم أحياء عند ربهم يُرزَقون.

- هل نستطيع أن نقترب أكثر؟

- يكفى هذا يا ابنتى.. لا نريد مشاكل جديدة..

- إننى أريد أن أنفض التراب عن دباباتهم.. لا أرغب فى أن تمضى وعليها من أرضنا ذرة منه!

ضمّ الأب ابنته إليه فى حب فياض، ودار بالمركب حول السفينة البريطانية الضخمة، وعاد والسكينة تغمر نفسه وقلبه، والبسمة العريضة تملأ وجه الصغيرة.. وعندما وصلا إلى البيت، هتفت..

- أبى، أنا أحب بلدى.. أحب «مصر»

- أعرف ذلك جيدًا. إنه شىء فى دمك يا سميحة..

- حقًّا؟ كيف؟

- يتوارثه أبناء بلدتنا منذ قامت.

- لماذا هم بالذات؟

- لأنهم يعاشرون الأجانب منذ وجدت الإسماعيلية ونحن والأجانب حجران يحتكان، فتتولد شرارة الوطنية والحب لمصر!

وتعود سميحة من الرحلة سعيدة، وأكثر حبًّا لمصر.. وتود لو أنها افتدتها بحياتها كما فعل شقيقها، وكما صنعت أمها من قبل! وكانت الصغيرة تبدى مظاهر الحب فى كل مناسبة.. والناس فى قرية العمدة لا ينسون لها يوم تأميم القناة، ولم تكن تجاوزت التاسعة من عمرها، لقد وقفت فوق سطح الدار تهتف لمصر وبطلها الثائر، حتى بُحَّ صوتها، وأنزلها أبوها ليحملها على كتفيه، ويدور بها الحوارى والأزِقَّة، ومن حوله بعض الأهالى فى أول مظاهرة عرفتها قرية «العمدة» فى تاريخها الطويل..

وعندما وقع العدوان الثلاثى على بورسعيد، تكرر خروج أهل القرية - وعلى رأسهم دياب - فى طريقهم إلى ميدان المعركة، لكن صمود المدينة البطلة، وثورة العالم على إنجلترا وفرنسا، وذيلهما إسرائيل، أجبر هذه الدول الثلاث على الانسحاب لتبقى لنا قناتنا.. ويتصادف أن يوم ٢٣ ديسمبر - يوم خروجهم - عيد ميلاد سميحة، وكانت هى وأبوها

يحتفلان به على غير عادة الريف فى بلادنا، وتصنع الصغيرة فطيرة كبيرة بالسكر فى هذا اليوم من كل عام، وتدعو زميلاتها وزملاءها لحفل بسيط، أصبح لايُقام من أجلها وحدها، بل من أجل عيد وطنى صنعته دماء الشهداء فى بورسعيد . . وكان دياب أسعد الناس بما يجرى، ولكنه فى بيته، فى الداخلِ، كان يحس ببعض المتاعبَ والمشكلات، إذْ تعوَّد على وجود زوْجَةٍ تدير المنزل، وتطهى الطعام، وتخيط الثياب، وتملأ الدار بالود والحب والحنان . .



الباب الثالث

التاريخ يقول:

رفعت ثورة مصر شعار: حرية. اشتراكية. وحدة. حرية الوطن الكاملة من الاستعمار بكل ألوانه، وحرية المواطن من العوز والفقر.. ونادت بالعدالة الاجتماعية والتنمية الاقتصادية.. كما أن مصر اتحدت مع سوريا، في «الجمهورية العربية المتحدة» وفشلت الوحدة.. وحدث الانفصال.. ولكن مصر بقيت مؤمنة بالوحدة العربية، لذلك ساندت اليمن في ثورتها ضد الاستبداد والجهل والتخلف، ووقفت مصر مع شقيقتها وقفة باسلة، جعلت الاستعمار يضيق بها، ويتآمر عليها.. فدفع إسرائيل لكى تهاجم مصر، وتحتل كل سيناء عام ١٩٦٧، بعد حرب سريعة.. واستولت إسرائيل على سيناء.. والضفة الشرقية للقناة. وتوقفت الملاحة فيها.. ولم تسكت مصر، بل صمدت، وردعت قوات عدوها، واستنزفتها في حرب طويلة.



حكايتنا تقول:

إن الحياة داخل بيت دياب ماكان يمكن أن تستمر على صورتها هذه: الأب فى عمله بالحقل، والابنة فى دراستها بالمدرسة، والدار خالية خاوية..

وذات يوم نقل الأب لابنته خبرًا.. إنه سوف يتزوج من فتاة عربية من الشرقية، وشعرت الصغيرة بالقلق، ولو أنها أبدت سرورها، فإن عمل البيت ثقيل عليها، وهى غير قادرة على النهوض به.. وكانت أخبار مصر تملأ الدنيا، وتشغل سميحة عن كل الدنيا.. هناك انتصارات تسجلها فى كراسة المدرسة. هناك خطب تحفظها عن ظهر قلب. حجرة الدراسة انتقلت إليها الأحداث، والمعلمون فى حماسة غامرة يتحدثون



عن العروبة والوحدة، وعن الحرية الزاحفة على كل أرجاء الوطن، الذى بدأ بعد حرب بورسعيد ينفض عن نفسه كل صور الاحتلال والاستعمار. . وسطور الكراسات، وكتب المطالعة تحوى الكثير مما يجرى، وسميحة غافلة عن كل شيء، بل إنها لا تكاد تلمح ذلك الضيق الذى يشيع من عينى زوجة أبيها كلما رأت إقبال الأب على ابنته وحبه لها، بل تجاوز الأمر الضيق، وتحول إلى لون من الكراهية، تدفع زوجة الأب إلى تحميل الصغيرة ما فوق طاقتها، بل إنها بدأت تحتجزها فى البيت، وتمنعها من الذهاب للمدرسة، لكى تؤدى أعمالا أكبر منها. . كما راحت تحرمها الكثير من الطيبات التى يعود بها أبوها من الحقل، أو يشتريها من السوق. . وكانت سميحة قد

قرأت حكاية سندريلا فى كتاب قديم فى مكتبة المدرسة . . وقد أعادت قراءتها مرارًا وتكرارًا، ولم تدرك سر إعجابها بها، حتى لقد حفظتها عن ظهر قلب، وكانت تسمى نفسها - فيما بينها وبين نفسها - «سندريلا» لا سميحة . . ولم تُرزق الزوجة الجديدة أطفالا ، لذلك ظلت زوجة الأب تشبه تمامًا تلك التى فى القصة، وإن كانت قد أصبحت أكثر منها قسوة نتيجة حرمانها من الأولاد . . ولم تكن الصغيرة تشكو لأبيها، ولكنه كان يلحظ ما يجرى فى صمت، ويلفت نظر زوجته فى رقة، خاصة أن الصغيرة قد بدأت تشب عن الطوق وأصبحت تدرك الكثير مما حولها، لكن المرأة استمرت فى قسوتها وعنادها . .

وفى يوم لا تنساه سميحة وقعت أحداث كبيرة . .

كانت قد انتهت من دراستها الابتدائية، ورغبت فى الالتحاق بمدرسة إعدادية فى مدينة مجاورة، وحاول الأب أن يثنيها عن عزمها فما من سبيل لذهابها يوميًا لهذه المدرسة، لكن الابنة أصرت وراحت تبكى ، والأب حائر فيما يجب عليه أن يصنعه . . وإذا بأخبار تزلزل كيانه . . لقد وقع انفصال سوريا عن مصر . . وهو مع ابنته يتابع قلق الأحداث، والفتاة



بين حين وآخر تشير إلى قرب بداية الدراسة، وصرخت فيها زوجة الأب فى عنف:

- أنت مجنونة، مثل أمك..

ووقع انفصال ثان.. تم طلاق دياب من زوجته..

وعادت للبيت بسمته، وشاع فيه الحب من جديد.. لكنها بسمة فيها من الأسف الكثير، وحب يشوبه حزن وقلق.. فقد انقطعت سميحة عن المدرسة لتباشر أعمال المنزل، كما قام نزاع بين الأب وبعض أهل القرية، ولم تنتج الأرض المحصول الذى انتظره، خاصة بعد أن جند قريب للأب كان

يساعده فى الحقل، وسافر إلى اليمن. . وكان الأب يتوقع عودته بخير كثير من هناك، كما حدث مع بعض زملائه، لكن بدلا من الخير، جاء خبر يعلن استشهاده. . وساد البيت ألم شديد. . كأنما كُتب على هذه الأسرة بالذات أن تعيش أحداث وطنها، وأن تتأثر بها حياتها فى كل صغيرة وكبيرة. . إلى أن وقعت الكارثة. . كارثة الخامس من يونيو١٩٦٧ . . يومها عاد الأب من الحقل. . وقد تخشب ذراعه. . ويده اليمنى أصابها شلل، وبات من الصعب عليه أن يحركها. . كان يضع كفه على الوسادة بجانبه، ويتطلع إلى يده. . يراها تشبه سيناء، وأصبع إبهامه كأنه القناة. . وذراعه البحر الأحمر الراكد الساكن بعد أن أغلقت القناة. .

وهاجر كثيرون من أهل القرية، شأنهم فى ذلك شأن كل أهل الإسماعيلية، ولكن الأب رفض أن يترك بيته وحقله. . أخذ يعمل بيده اليسرى، ويعالج اليمنى. . كان يحس بتحسن كبير كلما نقلوا إليه أخبار «الصمود». . إنه يرتاح قليلا لِما يسمعه، لأنه يرفض مجرد الصمود. . الدنيا تتقدم ومن يقف مكانه يتخلف. . ونحن رجعنا للوراء، ولسنا قادرين على استعادة أنفسنا.



كان يحس كأنه مضروب فوق رأسه، ويريد أن يستعيد نفسه وتوازنه. . وكان « الردع » يشعره ببعض اليقظة، ويراها أولى خطوات النهوض من الكبوة. . وتحرك مع « الاستنزاف » الذى طال، قنابلنا تدك مواقعهم، لكنهم يتسللون إلى العمق ويضربونه. . وأحس بأن كل ذلك لا يكفى، لابد من معركة كبيرة، يرى أنها سوف تتأخر طويلا، ربما لا يشهدها فى حياته. .

وأحس بالحزن يغمر نفسه. . عميقًا، عميقًا. . كل شىء يؤخر مثل هذه المعركة. . ورئيس هيئة أركان الحرب يستشهد، وزعيم يرحل. . ومع كل حدث تتساقط دموعه. . وكانت الابنة تحس بكل ما يجرى لوطنها وأبيها، ولا تدرى متى يفيقان من الأسى والألم. . والذراع المتخشبة ما زالت مشلولة!

ودخل الفرح بيتهم ذات يوم من عام ١٩٧٢. .

تزوجت سميحة. . وشُغلت هى ووالدها بعض الوقت، لكنهما كانا يسمعان الكثير عن « المعركة ». . وهما يعترفان بأنهما مثل كل الدنيا. . ما كانا يصدقان أن شيئًا ما سوف يحدث. .

ووضعت سميحة طفلة أسمتها «حنان»، غيرت الكثير

من أمور الحياة من حولها. . كانت تتابعها يومًا بيوم، وتلحظ نموها، وعندما تنفرد بها لا تنسى أن تحكى لها عن جدتها، وعن مدينة الإسماعيلية، وعن. . وعن. . كانت حنان ترضع مع لبن الأم قصص مصر، بل لم يفت أم حنان أن تكلمها عن «المعركة» القادمة. . وقد ضبط دياب ابنته ذات مساء وهى مستغرقة فى هذه الحكايات، فقال لها:

- الطفلة ما زالت صغيرة على هذا. .

ولكنه كان يسكت، ويترك لابنته أن تربى وليدتها على الصورة التى تراها. . إنها تربيها لزمان غير زمانه، بل غير زمان أمها أيضًا. . مستقبل لا يعرفه إلا الله!



الباب الرابع

التاريخ يقول :

إنه فى العاشر من رمضان ١٣٩٣هـ الموافق السادس من أكتوبر ١٩٧٣م فى تمام الساعة الثانية وخمس دقائق فاجأت مصر الدنيا وبدأت القتال . . عبرت مئات الطائرات المصرية قناة السويس، ألقت بحمولتها من القنابل على المراكز الحساسة لقيادة الاحتلال الإسرائيلى فى سيناء، وعبرت قوارب سريعة إلى ضفة القناة شرقاً، لتقيم رءوس جسور، هنالك . . وانطلقت خراطيم المياه تحدث ثغرات فى السد الترابى، وبدأ تركيب جسور العبور . . كل ذلك تحت ستار من نيران المدفعية الثقيلة التى انصبت تحرق وتدمر . . وبدأت الدبابات تهدر وتعبر، وصيحات الجنود المصريين تعلو فوق انفجارات القنابل ودوى المدافع :

– الله أكبر . .

ونقلت وكالات الأنباء أن الجيش فى سوريا قد زحف ليحرر الجولان فى نفس اللحظة . . إنها إذن المعركة التى ينتظرونها !



حكايتنا تقول :

البيت الصغير ينفتح بابه فى سرعة . . أبو حنان يدخل وهو يلهث . . لقد استدعى من جديد ليلتحق بالقوات المسلحة . خلع جلبابه . . وارتدى الملابس العسكرية . . ترك الفأس . . حمل المدفع . . ودع زوجته ، وقبَّل ابنته حنان ألف قُبلة . ألقى بالتحية والوصية إلى جدها . . وغادرهم مع أول رمضان وهو يقول :

- هى فرقة تدريب لا أكثر ، ومناورات !

- ألم يكن من الممكن تأجيلها إلى ما بعد رمضان ؟

- لا يمكن . .



وصباح ذلك اليوم الذى لا ينسى.. العاشر من رمضان.. السادس من أكتوبر، سمع الجد «دياب»، وأم حنان، وأهل القرية أزيز طائرات كثيرة.. تعوّدوا عليها. لم تزعجهم. لكن الفزع انتابهم. سقطت واحدة من هذه الطائرات محترقة وهى فى طريق العودة من سيناء، وقد أصابتها طلقة مدفع، اندفعت لكى تسقط على قريتهم.. وتنفجر.. وتشتعل الحدائق، وتسقط بعض الدور، ويستشهد كثيرون، ويجرح عدد كبير من الفلاحين الطيبين.. ويسارع الأهالى بإبلاغ السلطات، وجاءت بعض سيارات الإسعاف والإطفاء والنجدة.. وأسرع المسئولون يقدمون العزاء ويواسون الجرحى ويعالجون المصابين.

وسيطر على القرية حزن عميق.

وفجأة انطلقت من قلب القرية الزغاريد فرحة.. زغاريد عالية.. مدوية لم يصدق الناس آذانهم. إن القرية المصرية طيلة تاريخها تعرف كيف تجامل.. كيف تحزن مع المحزونين وكيف تفرح مع الفَرِحين.. ماذا حدث؟ ماذا جرى؟

وقف الجميع فى ذهول. لا أحد يدرى ماذا هناك.. ولا أحد يصدق ما يحدث.. وما يجرى.. الجميع يسأل.. إننا لا نفتح المذياع فى كل القرية إذا ما توفى فيها أى فرد، فما بالكم بهذا.. وإذا بواحد من الفلاحين - هو دياب نفسه - يتقدم وهو يرقص فرحًا، ويصرخ:

- عبرنا.. عبرنا.. عبرنا..

ولا يفهم أحد ما يقوله الرجل الذى وقف وفى يده «مذياع صغير» مفتوح.. هتفوا فيه:

- يا رجل، ماذا بك؟ تفتح المذياع وسط هذه الأحزان!

إن «دياب» القادم من الحقل، لم يكن قد علم بحادث سقوط الطائرة.. كان يعمل ويسمع.. وفجأة أذِيع بيان القوات المسلحة:

بسم الله الرحمن الرحيم.. عبرنا القناة.. ورفعنا العلم

على سيناء. . وعندما تمالك نفسه، وشرح لهم ما حدث، أفاقوا وتنبهوا. . يا إلهى. . نسى أهل الشهداء. . نسى المصابين. . نسى المجرمين. . نسى المحزونين. . نسوا كل شيء إلا شيئًا واحدًا. . هو أن قواتنا المسلحة عبرت قناة السويس. . ورفعت العلم على سيناء. . وبدأت تزحف لتحريرها. . لتطهيرها. . لضم الأرض إلى الوطن الأم.

ويقف المسئولون مبهورين. . الهتاف يدوى: الله أكبر. . الهتاف لمصر يشق عنان السماء. . يهز أرجاء القرية، ولا أحد فيها يبحث عن تعويض، ولا الذين هُدمت بيوتهم يبحثون عن مأوى، الكل يبحث عن مذياع ليتابع. .

بسم الله الرحمن الرحيم. .

بيان من القيادة العامة للقوات المسلحة. . أصدرت القيادة العامة للقوات المسلحة البيان رقم. . . وهذا نصه. . .

وتتوالى أخبار الانتصار. .

كان ذلك اليوم منعطف طريق فى تاريخ القرية وأهلها. . بل فى تاريخ مصر والوطن العربى، ولا نغالى حين نراه من معالم تاريخ الإنسان على الأرض. وكان للعم دياب مجموعة نخلات، بلحها كالسكر، محصولها ثروة. وكانت بجانب

معسكر للقوات المسلحة كثيرًا ما اشتكى لقائده من الجنود الذين يعتدون على بلحه.. ومع الصباح الباكر لليوم الثانى للمعركة خرج إلى النخيل يقطع بلحه، ويضعه فى أقفاص ويقف علي الطريق يشير إلى العربات العسكرية، ويضحك الجنود ظنًا منهم أنه يريد أن يبيع البلح. يوقف واحدة منها ويحمل إليها قفص البلح قائلا:

- أريد أن يعبر بلحى إلى سيناء، هذه هدية لكم، أعرف أن بعضكم صائم.. مع أنه يجوز لكم أن تفطروا فى أيام الجهاد.. وأهدى إليكم بلحى لكى تفطروا عليه، إنه سُنَّة من السنن التى كان يحرص عليها الرسول عليه الصلاة والسلام..

ويحمل الجنود البلح تحت إلحاح دياب شاكرين، بعد أن يرفض أن يتقاضى الثمن.

وأم حنان تحمل ابنتها حنان والمذياع، وتضم الصغيرة إلى صدرها، وهى تهتف:

- أبوك عبر يا حنان.. أبوك عبر!

وترضع الصغيرة مع لبن أمها: الفرحة.. النشوة.. النصر. ها هى ذى الأيام، مرة أخرى، تحمل لهذه الأسرة

الصغيرة ابتسامة، ولحظة سعادة، والأبطال يلقنون أعداء الأرض درساً لن يُنْسَى، ويؤكدون العبارة التى قيلت عنها: إنها مقبرة للغزاة.

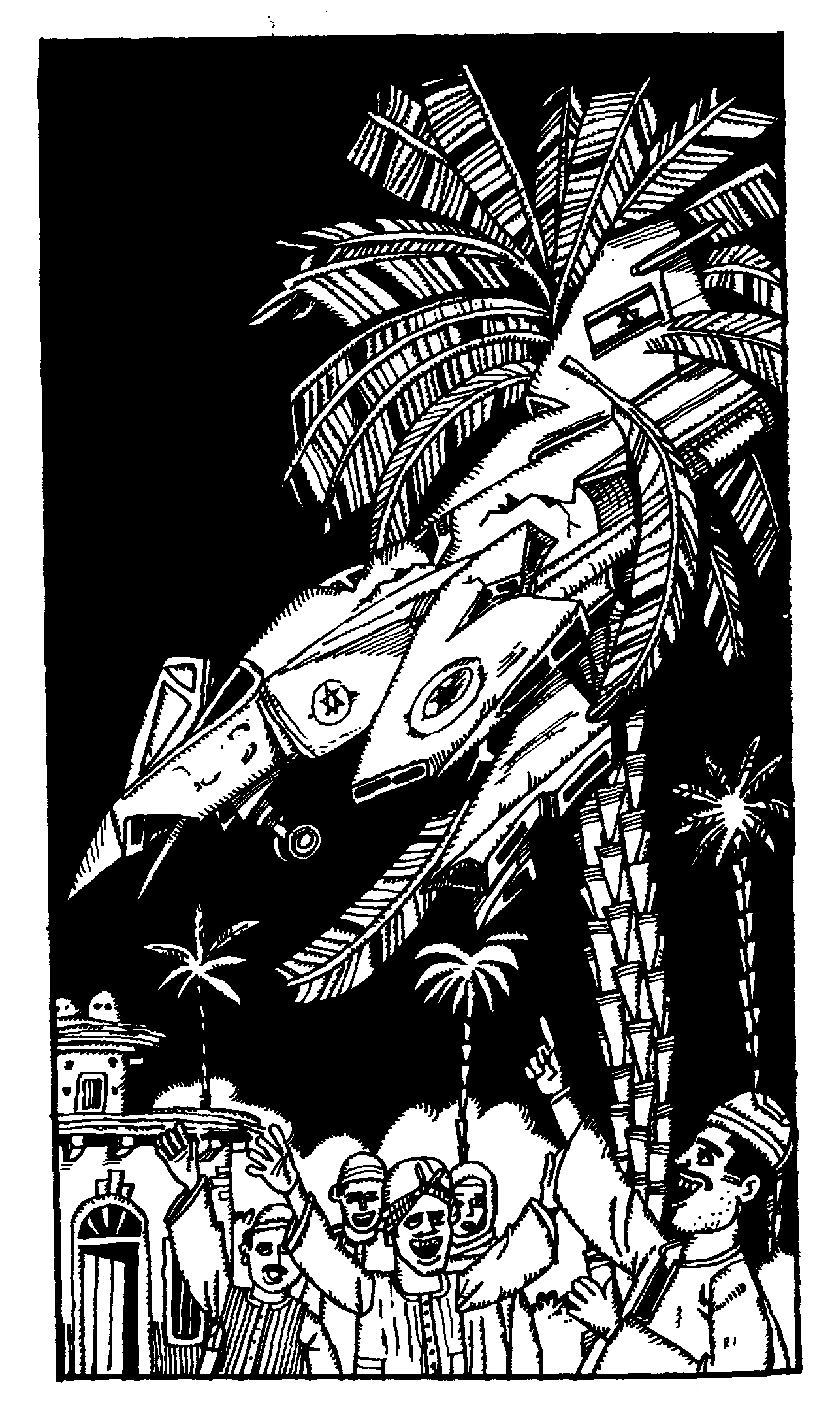
ويعود دياب إلى النخيل، يريد أن يحصل على بلحه لكى يهديه إلى الجنود، فإذا به أمام مشهد لا يمكن أن يحدث ولو فى الخيال، وقف كأنما يشاهد صورة.. لوحة.. كان لا يستطيع أن يصدق عينيه.. راح يفرك عينيه حتى يتأكد أنه ليس فى حلم..

لقد رأى نخلته وقد (طرحت فانتوم).. كان هناك نصف طائرة معلق يتدلى من نخلة، وجاءت القرية كلها تشاهد النخلة.. ويدق العم دياب كفًا على كف ويقول:

- يا أولاد.. ألم أقل لكم إن البلح هدية؟.. لماذا ترسلون لى ثمنه؟

ويضحك الأهالى.. إن العم دياب يرى أن الجنود قد بعثوا بنصف الطائرة ردًا على هديته، ويقترحون عليه أن يحيط المكان بسور، وأن يدخل الناس إليه بتذكرة لكى يشاهدوا النخلة التى (طرحت فانتوم).. ويشاركهم الضحك ويصر على أن تبقى (الفانتوم) مصلوبة على نخلة محترقة فوقها.

وبدأت مرارة الخامس من يونيو ٦٧ تقل فى أفواه الناس. . وبالذات أسرة دياب وسميحة ومعها الرضيعة حنان، وقد أسلمت الأم أمرها لله، ولم تعد تفكر كثيرًا فى زوجها، فقد باتت أسرتها تحمل اسم «الشهداء»، ومكتوب عليها أن تقدم البطل بعد البطل فى كل معركة تخوضها بلادنا.



الباب الخامس

التاريخ يقول :

كانت إسرائيل قبل حرب أكتوبر تعلن فى كل مناسبة أن جيش مصر - إذا حاول عبور القناة - سيفقد نصفه. . فضلا عن إعلانها أن القناة - ستشتعل لهبًا، وأن الساتر الرملى تستحيل إزالته، وأن خط بارليف أقوى خط دفاعى عرفته الدنيا. . وظلت إسرائيل تكابر بضعة أيام، ثم اعترفت بالتقصير، وصرخت تستنجد بحليفتها وسندها : أمريكا. . وتدفقت منها على سيناء أحدث الأسلحة، وبدأت قوات إسرائيل التى تدعمها أمريكا تصمد للضربة المصرية العنيفة. وقامت أكبر معركة للدبابات فى التاريخ. وانتهزت القوات الإسرائيلية الفرصة لكى تتسللٍ من ثغرة عند قرية الدفرسوار عبرت منها غرباً. تقدموا جنوب الإسماعيلية وشمال السويس. زحفوا على المدينتين الباسلتين. . صمدتا فى بسالة، وقاتلتا فى عنف. . كنا نقاتل لتحرير الأرض، والإنسان العربى.



حكايتنا تقول :

سمع «دياب» بأمر قوات الاحتلال، وتحقق مما سمعه، عندما شاهدهم عند مشارف القرية. . ينصبون المدافع، يصوبونها إلى المسجد، والمدرسة، والمنزل. . نفض دياب التراب عن بندقيته القديمة، وراح يصلح من شأنها، ويجهز الذخيرة، وهو يردد. .

- مرحبًا. .

يغمغم الرجل فى أثناء إعداده بندقيته بأناشيد سمعها من الإذاعة. .

- «والله زمان يا سلاحى»

- «أنا النيل مقبرة للغزاة»

- «مصر مصر.. أُمُّنا..»

وضمت سميحة طفلتها الرضيعة «حنان» إلى صدرها، وراحت تقبّلها، كأنما تريد أن تطمئنها، وتود لو تطمئن نفسها.. قوات الاحتلال ليست جديدة على المنطقة، شهدتها كثيرًا، وقاومتها طويلا، وقاتلت ضدها فى بسالة حتى أخرجتها من أرضنا أكثر من مرة..

وجاءوا كالجراد إلى القرية، يهددون ويتوعدون:

- سَلِّمُوا شباب القوات المسلحة!

- ما من أحد من الشباب فى القرية.

ويصرخون سائلين فى غضب: هل انضموا كلهم إلى الجيش؟!

ولا يتلقون ردًّا، الأمر الذى يزيدهم غضباً وضيقاً..

- سلِّموا أسلحتكم!

- ما من أسلحة لدينا..

ويفتشون البيوت، ويودون لو أنهم حملوا منها سكاكين المطبخ والعِصىّ.. وراحوا يقبضون على الفلاحين على أنهم جنودِ، ليستبدلوهم بأسْراهم وعلى رأسهم عسّاف ياجورى.

ويبتسم دياب، ويسخر منهم، ومن قنابلهم التليفزيونية، ومن مدافعهم ودباباتهم وعرباتهم المصفّحة التى لا يغادرونها خوفاً وفزعًا. ويعثرون على بندقية دياب المُخَبَّأَةِ، يحملونها معهم، وهم يهددون ويصرخون ويأمرون:

- اتركوا هذا البيت..

- غادِرُوا القرية..

- لا تبقوا فى هذا المكان!

وتحمل الأم طفلتها، ويجرُّ الجد «بقرته» و«حماره» ويأخذون ما خف حمله، وغلا ثمنه. تبكى سميحة، وتقول والدموع فى عينيها:

- رباه! لقد احتملنا سنوات طويلة، لم نهجر أرضنا.. رضينا بالقنابل تنصب فوق رءوسنا لنبقى: نزرع، ونحصد،

ونراقب، وننتظر . . وعندما حانت لحظة النصر، وإذا بنا . . .
يهتف بها أبوها : صبرًا أُمَّ حنان!

تسأله : إلى أين؟

- لا أدرى . . إننى لا أطيق البقاء وهم هنا . .

- فلنذهب، إلى الإسماعيلية لسنا فيها غرباء . .

ويغمغم دياب : آه . . مكتوب عليكم النضال، يا أهل القنال!

ويمضى الموكب الحزين . . سميحة، تحمل «حنان» والجد، ومن ورائه البقرة والحمار، والجميع خافضى الرءوس، يسيرون فى أسىً، وتتساءل سميحة . .

- أليس فى مقدورنا أن نصنع شيئًا من أجل مساعدة جيشنا؟

ويرد الأب : هذه الحرب تختلف عن ثورتنا على الإنجليز . . هذه الحرب بين جيوش منظمة. دبابات ومصفحات وطائرات . . كان الإنجليز فى معسكراتهم كفأر فى مصيدة . . أما هؤلاء فقد جعلوا من أسلحتهم معسكرهم . . هل رأيت جنديًّا منهم أو ضابطًا فى الطريق؟!

- لا، هم لا ينزلون من دباباتهم وعرباتهم . . لتحميهم .

- إنهم يظنون أن باستطاعتهم أن يبقوا هنا. . فليبقوا لندفنهم. . أرضنا مقبرة للغزاة كما يقول التاريخ، وكما تردد أغنية الإذاعة.

لم يكن الكلام يمتد طويلا. بضع عبارات، مبتورة، ثم يسود الصمت. وتسأل أم حنان:

- هل تظن يا أبى أن غيبتنا عن القرية ستطول؟

- لا. . لا أظن!

- إننى أخاف على ما فى البيت؟

- ألا تخافين على الأرض؟

- تقصد محصول الفول السودانى، والبرتقال؟

- لا لا. . أقصد الأرض، مجرد الأرض. . التراب!

- لن يبقوا عليها. . وإن سرقوا ثمارها!

- الفول والبرتقال ليس أغلى من بترول سيناء.

- صدقت. . صدقت يا أبى. .

ويمضيان. . كانت لحظات قاسية على النفس. . وكانت الأم تنظر إلى حنان فى حنان. . ثم تتلفت من حولها. . وتتذكر الأبطال المقاتلين. . وزوجها. . ومصر. . وتفتح أم حنان

عينيها. تنظر.. تتطلع.. كانت لها عينان جميلتان، قادرتان على ملاحظة ما تقع عليه.. كأنهما آلة تصوير تلتقط المناظر وتسجلها فى شريط لا تنمحى من فوقه الصور..

وصل الموكب الحزين إلى مشارف الإسماعيلية، وقد أضاءت الابتسامة وجه أم حنان.. وراحت تفتش عن واحد من ضباط قيادة القوات المسلحة.. مضت إلى مقر القيادة.. تصوَّرَ الضابط الكبير أنها سوف تشكو مما فقدته فى قريتها، سألها:

- ماذا يمكننى أن أقوم به من أجلك؟

- من أجلى، لا شىء.. من أجل مصر: قاتِلْ..

- هذا ما نفعله..

- ولست أريد أن أعطلك عن القتال، لكننى قادمة من منطقة الدفرسوار.. وعلى طول الطريق وأنا أحمل حنان ابنتى، كنت أسلى نفسى بأن أعد دبابات الأعداء، وعرباتهم المصفحة، وطائراتهم ذات المراوح.. بل أحياناً كنت أحاول أن أعد جنودهم..

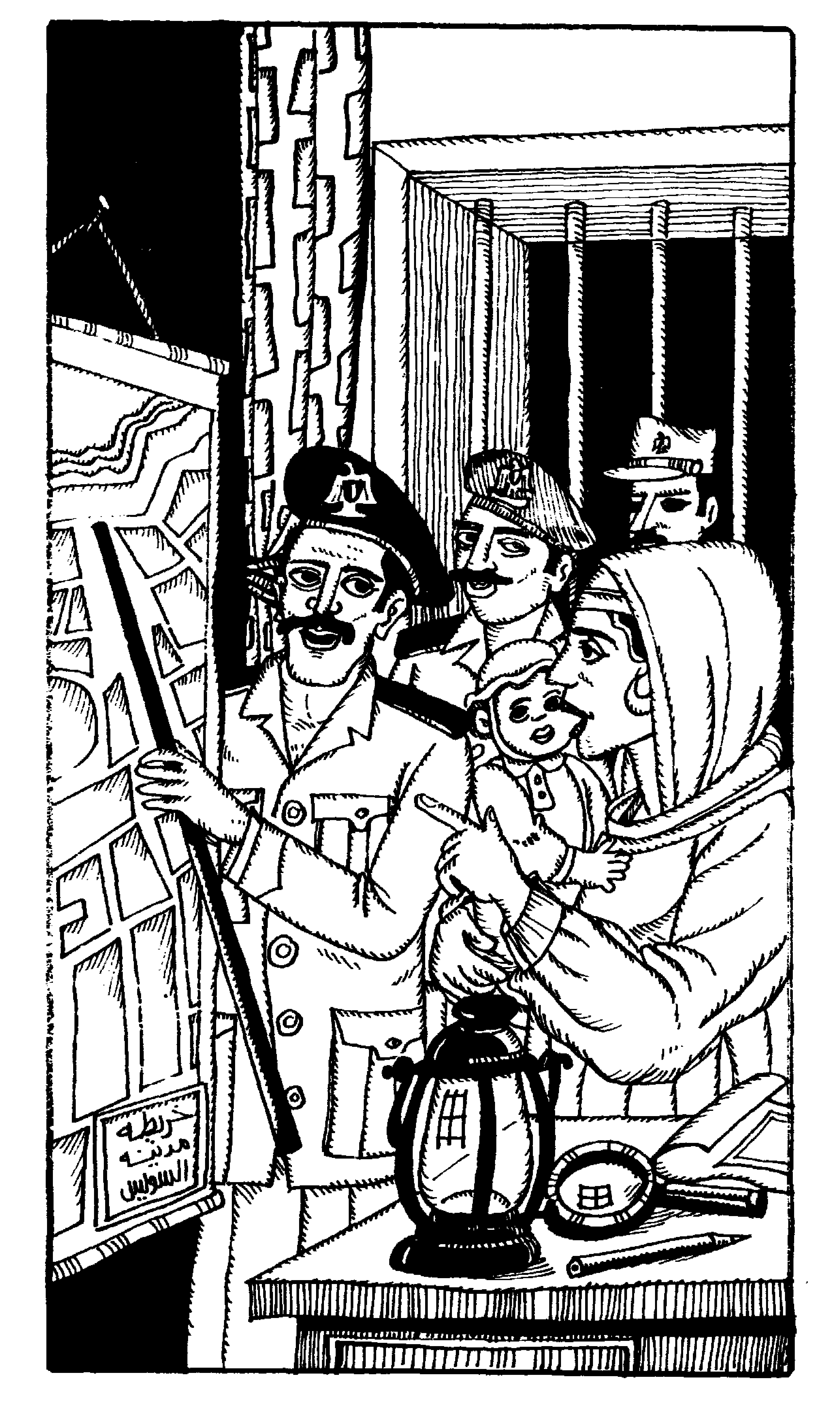
- كيف؟!

- أنا من قرية (العمدة).. هل لديك خريطة؟!

وتقف أم حنان حاملة طفلها أمام خريطة علقوها على الجدار، ورسمت طريقها فى الوصول إلى الإسماعيلية، وحددت أعداد الدبابات والعربات فى كل مكان. . وكان الضابط يسجل على الورق هذه البيانات، وهو فى دهشة، لأن ما تُدلى به هذه الفلاحة البسيطة يتفق تماماً مع ما عنده من معلومات. . حدثته عن قواعد من الأسمنت تبنى للمدافع، وشاشات للرادار، ومواقع اتخذوها كمعسكرات، وبيوت جعلوا منها قيادات لهم. . وكانت أم حنان خلال الإدْلاء بما رأت تعتذر لأنها قد تعطل الضابط عن مهماته، وراح يؤكد لها أهمية ما تقوله وخطورته، وحاجته الماسَّة إليه. . بل لقد صارحها بأن ما نقلته إليه سيكون وسيلته لانتصار كبير.

وبعد أن أدلت المرأة بكل ما عندها شكرها الضابط بحماسة كبيرة. .

– إنّ ما فعلتيه عظيم. . بحق، وصدق. . شىء ليس بالقليل، ولا هو هين. . لقد خرجتِ من بيتك مطرودة، تحملين ابنتك ومعك أبوك العجوز، كما أن زوجك يقاتل ولم تُوجّهى سؤالا واحدًا عنه. . ومع كل ذلك كنتِ تفكرين فى مصر، والنصر، والمعركة. .


خريطه
مدينه
السويس

وسعدت أم حنان لأن محاولتها للمعونة صادفت الرِّضا، وهى ترى أن بلادنا فى حاجة إلى كل جهد، وها هى ذى قد بذلت جهدًا متواضعًا، لقى اهتمامًا.. وقبل أن تغادر مقر القيادة، قالت للضابط:

- سأكون فى حى «الأربعين».. عند عمتى (... التى تسكن بجانب المجزر الكبير.. أنا تحت أمركم..

ومضت أم حنان تحمل الصغيرة والضابط يشيعها بنظر ـ الإكبار والإعجاب.. ونسى خلال ذلك أن يقدِّم لها شيئًا، أو يعرض مساعدة.. وهمس لنفسه..

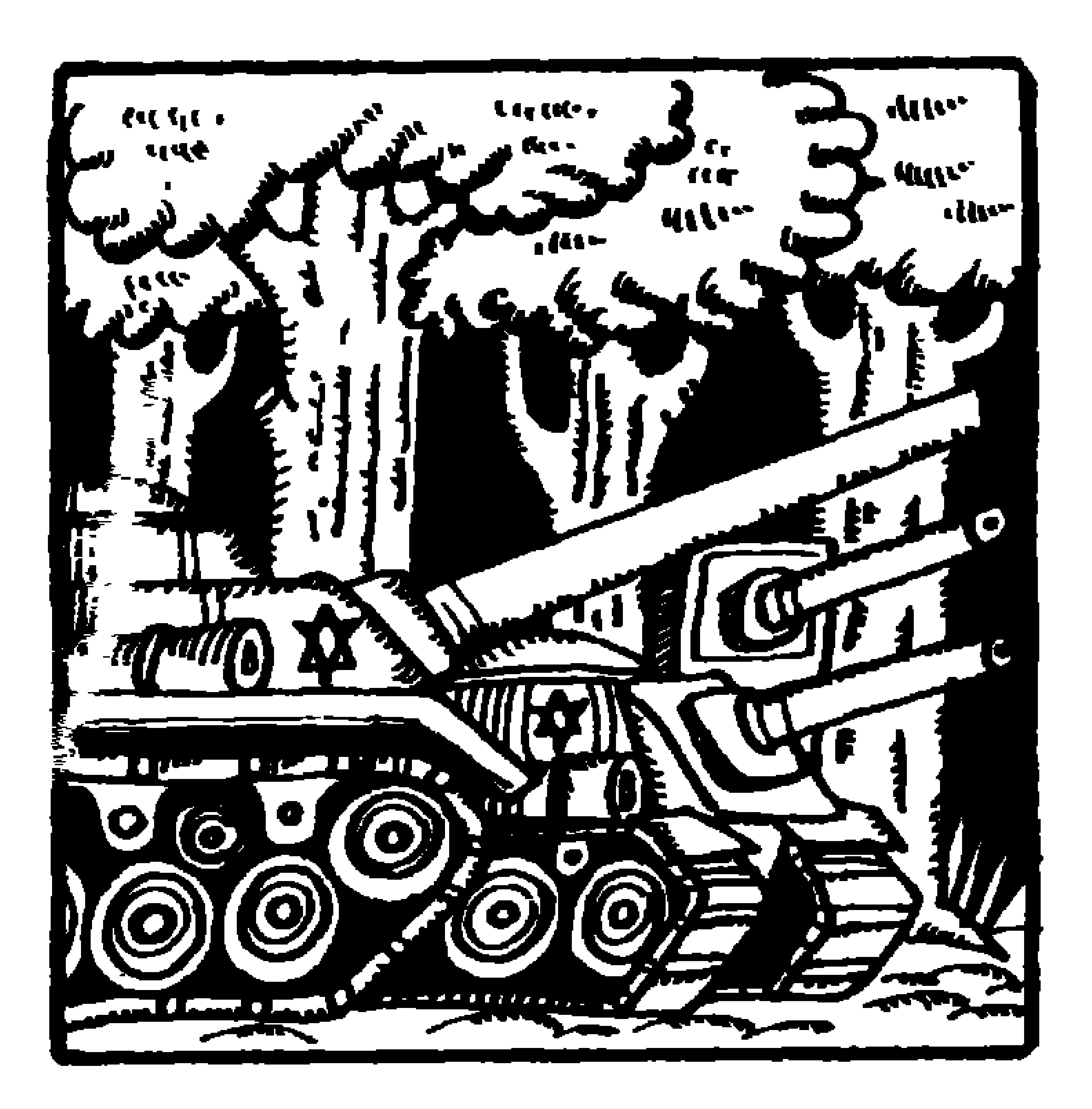
- هى ليست من ذلك اللون الذى يريد ثمنًا لوطنيته. إنها لا تتاجر بها.

الباب السادس

التاريخ يقول :

بدأت القيادة المصرية تضع خططها لتصفية الثغرة. . كان الألوف من الجنود الإسرائيليين قد تجمعوا فيها مع أسلحتهم الثقيلة. . وطوقتهم قوات مصر. . وحاصرتهم من كل جانب، ولم يعد لهم غير طريق الثغرة منفذًا. وكان التخلص من هذه الألوف، وتدمير كل هذه الأسلحة يعنى شيئًا واحدًا : بداية النهاية لإسرائيل نفسها، لذلك صرخت أمريكا :

- سوف أدخل الحرب إذا ضربتم هؤلاء. . إن إبادتهم تقصم ظهر حليفتى، وينهى وجودها. وقد تعهدت أن أحمى هذا الوجود! وكان العدو يتصور أن إخفاء دباباته وجنوده بين الأشجار يمكن أن يحميها. . لكنَّ عيوننا كان فى استطاعتها أن ترصدها وترقبها. .



حكايتنا تقول:

لم تكن أم حنان تستقر فى بيت عمتها حتى استدعيت إلى القيادة..

استقبلها نفس الضابط القائد، فى حفاوة واحتفال كبيرين، وقد أحست حين جاءتها الدعوة أن فى الأمر شيئاً، وشعرت بالرضا إزاء ما سبق لها أن صنعته، وتمنت أن تكون معلوماتها قد أفادت، ووجدتها فرصة لكى تسأل.. وبادرها الضابط بقوله:

- إننا فى حاجة إليكِ يا أم حنان..

- تحت أمرك.. ليتنى أستطيع أن أصنع شيئًا من أجل بلدى وقواتها..



- نريدك فى مهمة سرية بالغة الأهمية . .

- سأؤديها بنجاح إن شاء الله .

- هل فى مقدورك أن ترجعى إلى قريتك (العمدة) ؟

- طبعاً . . ما من شىء فى الوجود يستطيع أن يمنعنى من الوصول إليها .

- عندى ثلاث رسائل لرجالنا بالداخل . . فى القرى الموجودة على الطريق إلى بلدتكم . . إننى بحاجة إلى بعض المعلومات المهمة عن أماكن معينة على الطريق . . لقد قمت متطوعة بهذه المهمة من قبل فهل توافقين على القيام بهذه المهمة ؟

- هذا شرف كبير، وثقة أعتز بها . . إننى أقبل بكل سرور !

- لا تنسى أنهم سوف يشكون فيك.. قد يعتقلونك أو يضايقونك أو...

- لا لا.. هم مغرورون، وليسوا كما يصورون أنفسهم أذكى الأذكياء.

- لا يفوتنى أن أحذرك.. لابد أن تتركى ابنتك هنا..

- لماذا؟.. إنها وسيلتى لخداعهم..

- الأرض مملوءة بالألغام.. لقد دفنوا متفجرات فى كل شبر من الأرض..

- ألغام.. ومتفجرات؟

- نعم.. من الممكن أن ينسفك اللَّغم فى أية لحظة، حين تلمس قدمك مكانه..

وترددت أم حنان لحظة، قبل أن تقول:

- ولو.. إننى أقبل المهمة.. وسوف أقوم بها..

- ألا تخافين الألغام؟

- الرب واحد، والعمر واحد..

- إننى أُحَيِّى شجاعتك!

- بودى أن تكون على ثقة من أننى لست خائفة على نفسى، لكن..

- ماذا هنالك؟ صارحينى . .

- لا . . لا شيء . أنا مستعدة . الله معى .

- إذا كنتِ مترددة، قولى . . أرجوك . أستطيع أن أُقدِّرَ الموقف . .

- أبدًا . . دعنى أؤدى المهمة وأتحمل المسئولية .

- ونفسك راضية؟

- نعم . . وسعيدة .

- اسمعى . . هذه هى مهمتك السرية :

بالنسبة للرسائل سوف تقابلين. . . . . .

أما المعلومات فإننى أريد منك . . . . . .

قلبى معك، وفقك الله !

كان تَرَدُّدُ أم حنان خلال حديثها مع الضابط لا يرجع إلى خوفها على نفسها، بل لأنها كانت قد قررت أن تحمل الرضيعة حنان معها، فهى لن تستطيع أن تتركها، وما من واحد فى مقدوره أن يتحمل مسئوليتها . . كان لابد أن تحملها على ذراعيها ثلاثين كيلومترا، وتقطع هذه المسافة الطويلة سيرًا على الأقدام وسط الأعداء، وعلى طريق شاق مملوء

بالألغام.. كان ترددُها قلقًا على الصغيرة، واعتمدت على الله، ومضت بها والرسائل تختفى فى طيات ثيابها، وبقية ملابسها مربوطة فى صُرَّة..

وراحت على الطريق ترصد وتراقب.. تعد الأسلحة، والجنود. كانت ترسانة كبيرة للعدوّ قد انتقلت إلى المنطقة.. وألوف من العساكر يحتلونها، ومضت تسير، وبين حين وآخر يستوقفونها، ويهتفون بها ويصرخون فيها:

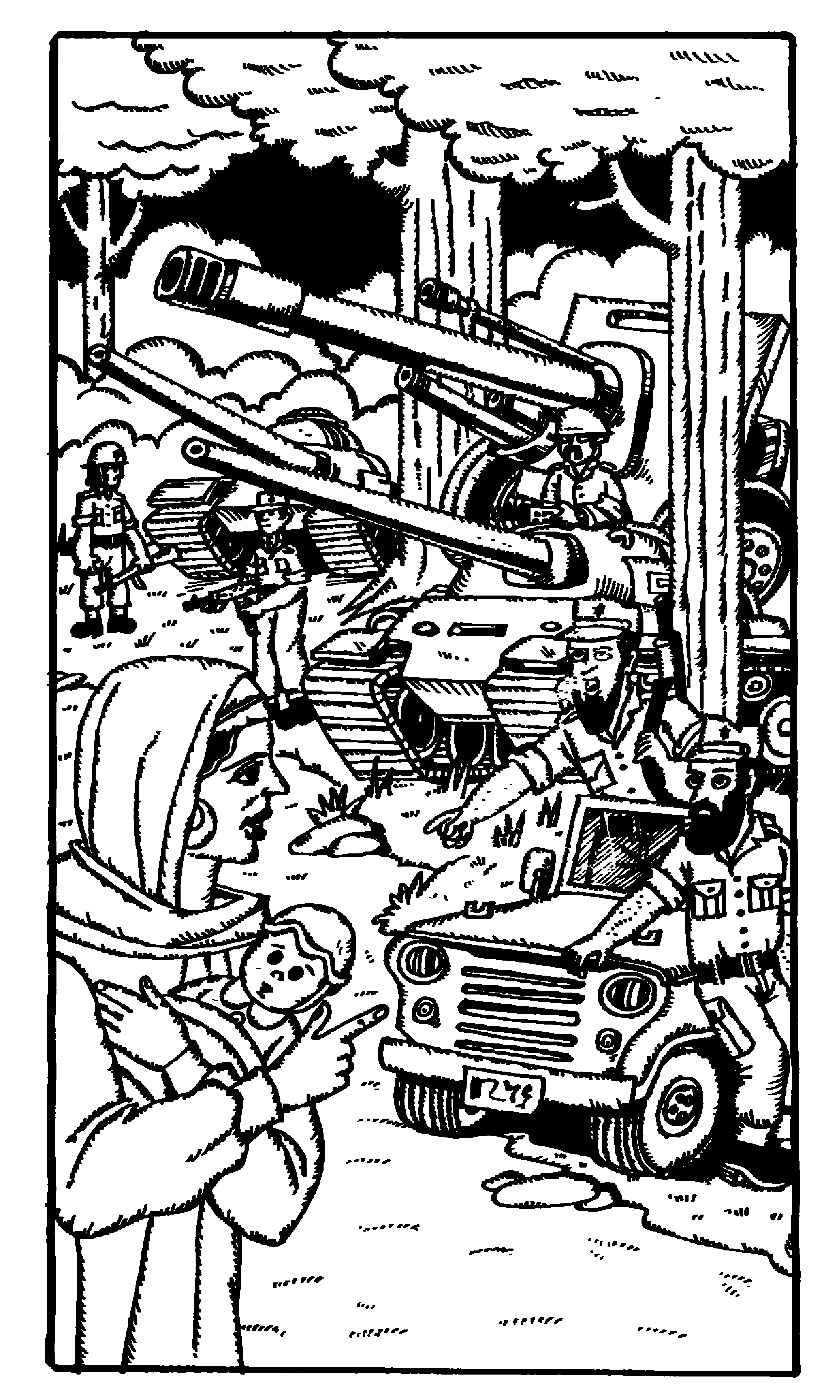
- يا مجنونة.. احذرى، لا تتقدمى..

- هذه أرضنا ومن حقنا أن نسير عليها أينما نشاء..

- إلى أين؟

- إلى بلدى.. بيتى وأشيائى فيه..

وينظرون إليها فى إشفاق. بل كانوا يرتجفون حين يتصورون أن لغمًا قد ينفجر فيها ليمزقها ورضيعتها، فيأمرونها بالعودة من حيث أتت، فترفض.. وتمضى، وعيناها - كآلة التصوير - تلتقط كل شىء.. تصور.. تعد.. تحسب.. الرحلة صعبة، بل بالغة الصعوبة.. الموت تحت أقدامها يترصدها فى كل لحظة.. والأعداء يحيطون بها من كل جانب، ورصاصة واحدة تنهى كل شىء.. بل لقد أمسكوا



بها ذات مرة واقتادوها إلى قائدهم . . وارتجفت وهى تتصور أنهم سيفتشونها ويخرجون الرسائل من بين طيات ثيابها، لكنها قرصت طفلتها فراحت تصرخ، وضاق القائد بصراخ الرضيعة، فأطلق سراحها . .

ووصلت الرسائل الثلاث إلى أصحابها بعد أن همست لهم بكلمة السر، وردوا بها . . وزارت بيتها، ثم غادرته من جديد، وعيناها على السلاح والجنود . . وصرخاتهم تكاد تخلع قلبها مع كل خطوة، والتحذيرات تأتيها من كل الذين تمر بهم، وهى تمضى على الأرض بخطوات ثابتة قوية، مؤمنة . . أرضنا لن تؤذينا . . إنها أحنُّ من أن تفعل ذلك . . لقد ولدتها . . ولدت ابنتها . . وولدت أمها البطلة . . وشقيقها الشهيد . . وزوجها المقاتل . . أما هؤلاء فإنهم أعداء للأرض، والإنسان الذى عليها . . وقد امتدت رحلتها فى الذهاب والعودة يومين كاملين . . ما أطولهما!

رجعت أم حنان، وقد أدت المهمة ببراعة وإتقان . . وعلى أحسن وجه . . وهتف الضابط وهى تدخل عليه حاملة حنان :

- ها قد عدت . . الحمد لله على سلامتك!

- الله يسلمك . . كل شىء تمام، يا افندم . .

وضحك الضابط، وهى تقلد الجنود، وقال لها :

- تضحية رائعة أن تعرضى نفسك للموت.. أما تعريضك ابنتك لهذا الخطر الجسيم فهو شىء فوق «التضحية».. أكبر من يسمى بأى اسم.. أمر يتجاوز ما يستطِيعه البشر..

ولا أتصور امرأة فى الدنيا قامت أو ستقوم به..

- أحمد الله على أننى قدرت عليه من أجل مصر.. كثيرًا ما فكرت.. لو انفجر اللغم سألقى بابنتى بعيدًا لتنجو!

- يا إلهى!.. أقسم لك أنى كنت أتذكرك ثانية بثانية مع دقات قلبى..

- مكتوب علينا أن نفعل الكثير من أجل مصر.. أريد أن أحدثك عن رحلتى.. وراحت أم حنان تقدم تقريرها فى دقة.. أبلغت الرسائل، والتقطت عيناها كل شىء..

قال لها : الحق أنى لا أدرى كيف أقدر جميلك، وأكافئك على...

- ماذا؟ مكافأتى أن تعيدوا لنا القناة، وأن تمر فيها السفن من جديد.. مكافأتى أن يرجع المهاجرون إلى مدنهم.. مكافأتى أن تدمروا الدبابات والعربات التى رأيتها على أرضنا

ورحت أعدها . . ساعتها سوف أعلق فى عنق حنان عقدًا من حديد أسلحتهم . .

-سوف يحدث إن شاء الله . . تفضلى . . تفضلى برتقالة من . .

- ولا هذه . .

- حق الضيافة !

- البرتقال فوق شجر حديقة بيتنا، أريد أن أرجع إليه . . أقسم بأنى لن أذوقه إلاّ إذا قطعته منها بيدى !

وانصرفت أم حنان وطفلتها على ذراعيها . .

* * *

لقد فتحنا الأبواب، واحدًا بعد الآخر، حتى الباب السادس، وصولا إلى السادس من أكتوبر . . . هل نتردد أمام الباب السابع - كما أشارت إلينا بذلك الحكايات القديمة - أم نتقدم لكى نفتحه ! . . ترى هل يخفى وراءه مفاجأة كبيرة كما وعدتنا بذلك القصص الخيالية ؟ ! . .

لا ندرى . .

تعالوا بنا إليه . .

الباب السابع

التاريخ يقول :

توتر الموقف عالميًا . .

انتصرت مصر برجالها، وفكرها، قبل أن تنتصر بالسلاح الذى فى يدها . . لقد أزالت الساتر الترابى بفكرة من السد العالى، إذ شاهد أحد ضباطها عنف الماء وهو يندفع من الخرطوم خلال إحدى عمليات بناء السد، فنقل الفكرة . . وصعد الأبطال إلى ذلك الساتر يجُرّون عربات اليد، لا تحمل البطاطا والذرة المشوية، بل القنابل والمتفجرات، وانتصرت إرادة الإنسان المصرى على تكنولوجيا العصر. ولم ترض أمريكا عن ذلك، بل ضاقت به، ورأت أن تبتلع هزيمتها وهزيمة حليفتها . ويبدأ فض الاشتباك . . وجلت قواتهم شرقًا . . وبقيت قوات مصر غربًا، فوق الرمال التى اختلطت بدماء الشهداء .



حكايتنا تقول:

بقيت أم حنان، والجد دياب فى الإسماعيلية، فترة لم تطل.. وعندما رحل المغتصبون ومضوا بعيدًا عن قرية «العمدة» بدأت رحلة العودة.. حملت الأم وليدتها «حنان»، وصحبت الجد ومعه بقرته وحماره، وساروا على الطريق..

ترى ماذا شاهدت فيه هذه المرة؟

كانت دبابات الأعداء، ومصفحاتهم محطمة مدمرة.. حيث رأتها خلال رحلتها السابقة.. إنها فى نفس أماكنها تقريبًا، ولكنها متفحمة، تفوح منها رائحة الموت..

- واضح أنك «نَقَرْتِ» هذه الدبابات، وتلك المصفحات «عينًا»!، أتت عليها!! وتبتسم..



لقد حقق لها القائد ما وعدها به!

وكانت أم حنان - وهى تقطع الكيلومترات الثلاثين سيرًا على الأقدام، للمرة الثالثة - تسير فى ثقة واطمئنـــان.. فليس فى الأرض ألغام، بعد أن رفعتها قواتنا المسلحة.. ولم يعد بها غير جنودنا وأبطالنا..

وعندما وصلت أم حنان إلى الدار وجدت أن بعض أشجار البرتقال ما زالت تحمل ثمارًا قليلة.. قطفت إحداها.. أطعمت منها حنان، وأعطت الجد بعضها، وأكلت بقيتها..

ذابت أم حنان فى شعب مصر. . ما عاد لهذه البطلة كيان خاص بها. . إنها مجرد فلاحة مصرية. . فى الاحتفال بمرور عام على حرب أكتوبر نشروا لها صورة كبيرة فى صحيفة يومية وحكوا قصتها. . كانت هذه أول صورة تلتقط لها فى عمرها. . قالوا لها:

- يشبهونك بالبطلات. . مثل جان دارك؟

- لا أعرفها. . لم أسمع بها.

لم تحتفظ طويلا بنسخة الصحيفة التى نشرت صورتها. . وعندما قدموا قصتها فى الإذاعة، لم تستمع إليها. . كانت مشغولة بزوج من الحمام الأبيض تربيه. .

. . . وسؤال أخير: هل تحبون أن تروها؟

تطلعوا فى وجه امرأة مصرية. . أصيلة. . صميمة. . سوف تجدون فيه ملامح من أم حنان. .

ختام

رقم الإيداع	١٩٩٧/١٤٤٧٣
الترقيم الدولى 977-02-5531-9	ISBN

٧/٩٧/١٢١

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

مجموعة طريفة يختص كل كتاب منها بقصة واحدة تفيض بالمغامرات والحوادث العجيبة المملوءة بآيات البطولة والشجاعة والإقدام .

صدر منها

٢١٢٦٣٥/٠١

دار المعارف